أوّل بيت

رافد الفاضل

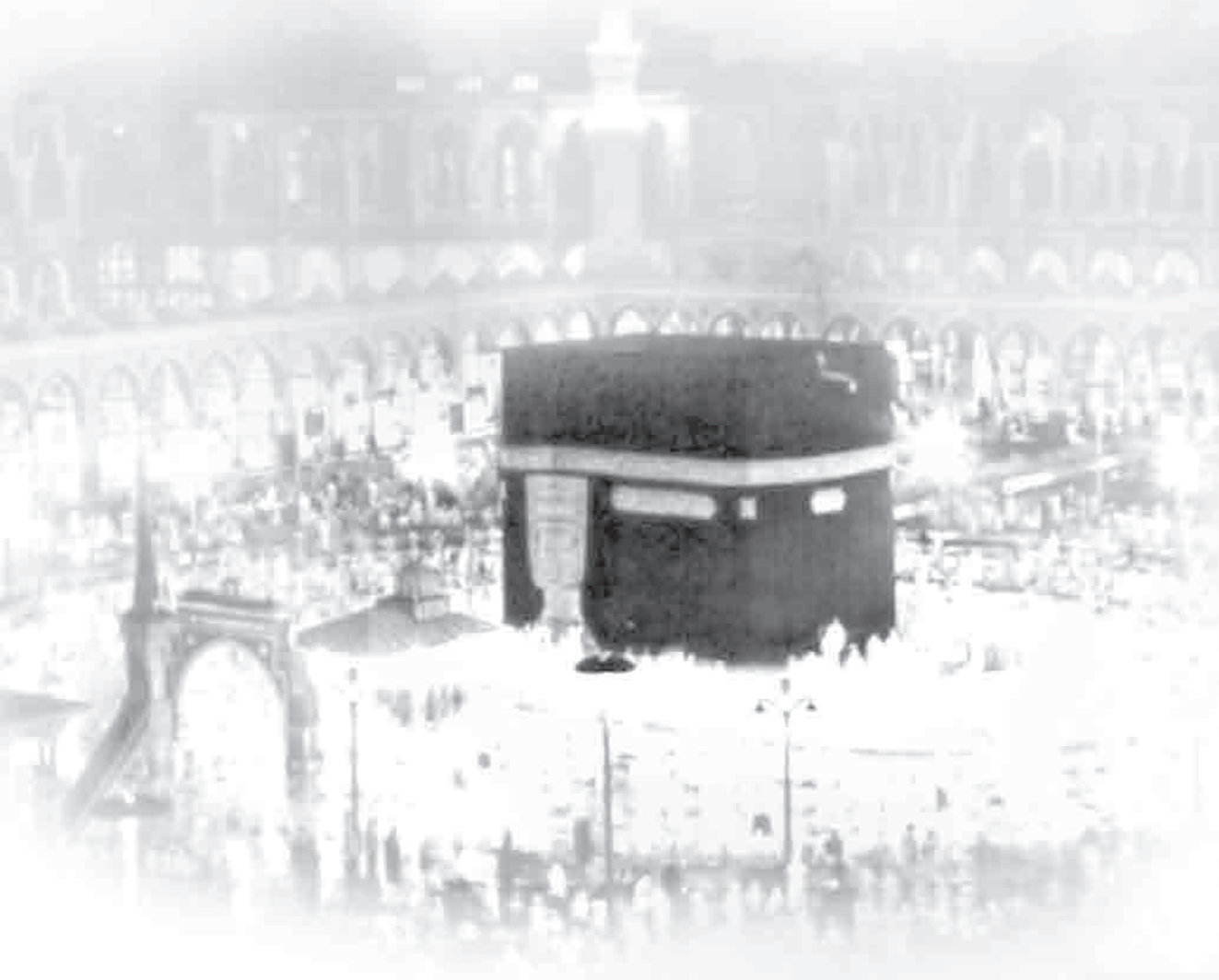

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ﴾.(١)

إنه الأول في الموقع الأهم، والأول في الخير والعطاء، والأول في أماكن العبادة وبيوتها، إنه المسجد الحرام، ذلك المكان المقدس الواقع في قلب الدنيا في قلب مكة المكرمة، قلب الحرم المكي، القلب النابض الذي تتوسّطه الكعبة المشرفة، قبلة المسلمين أينما كانوا، ومركز شعائر الله الأخرى التي يقوم بها الناس في الحج والعمرة.. إنه أرض الله الحرام المباركة وآياته البينات التي راحت تشكل بمجموعها بيت الله المخصّص للعبادة للطائفين والعاكفين والركع السجود حيث فرض الله الحج إليه لمن استطاع إليه سبيلاً.. وجعله مباركاً وجعله هدى للعالمين، وهو بالتالي بيت مبارك تضاعف فيه الحسنات، وتتنزل فيه الرحمات، وتتعاظم فيه الدرجات وبيت صلاح وهداية للناس أجمعين.. وهو مثابة الأمن للخائفين ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً﴾ منذ أن بناه خليل الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

« فهذا هو البيت كما يقول سيد قطب الذي اختاره الله للمسلمين قبلة.. وهو بيت الله الذي جعل له هذه الكرامة. وهو أول بيت أقيم في الأرض للعبادة. وهو بيت أبيهم إبراهيم، وفيه شواهد على بناء إبراهيم له. والإسلام هو ملة إبراهيم. فبيته هو أولى بيت بأن يتجه إليه المسلمون. وهو بمثابة الأمان في الأرض. وفيه هدى للناس، بما أنه مثابة هذا الدين.. » .

وأما الشيخ المكارم فيقول: «فلا عجب إذن أن تكون الكعبة قبلة للمسلمين، فهي أول مركز للتوحيد، وأقدم معبد بني على الأرض ليعبد فيه الله سبحانه ويوحّد، بل لم يسبقه أي معبد آخر قبله، إنه أول بيت

وضــع للناس ولأجل خــير المجتمع الإنساني في نقطة من الأرض محفوفة بالــبركات، غنية بالخــيرات، وضع ليكون مجتمع الناس، وملتقاهم..» .

إن المصادر الإســلامية والتاريخية والقــول ما زال للشــيخ تحدثنا بأن الكعبة تأسّســت على يدي آدمعليه السلام ثمّ تهدمت بســبب الطوفان الذي وقــع في عهد النبي نــوح، ثمّ جدد بناءهــا النــبي العظيــم إبراهيــم الخليلعليه السلام؛ فهــي إذن عريقة عراقة التاريخ البشري.

ولاشــكّ أن اختيار أعــرق بيت أُســس للتوحيد من أجل أن يكون قبلة للمســلمين، أولى وأفضل من اختيار أية نقطة أُخــرى وأي مكان آخر.

هــذا، وممّا يجدر الانتباه إليه هو أن (الكعبة) والتي تســمى في تسمية أُخرى بـ(بيت الله) وصفت في هذه الآيــة بأنها (بيت للنــاس)، وهذا التعبير يكشــف عــن حقيقة هامة وهــي: أن كلّ ما يكون باســم الله ويكون له، يجب أن يكون فى خدمة الناس من عبــاده، وأن كلّ ما يكون لخدمــة الناس وخــير العباد فهو لله سبحانه.

كما تتضــح ضمن ما نســتفيده مــن هذه الآيــة قيمة الأســبقية في مجال العلاقات بــين الخلق والخالق، ولذلــك نجد القرآن يشــير في هذه الآية إلى أســبقية الكعبة على جميع الأماكــن الأُخــرى، وإلى تاريخهــا الطويل الضارب في أعماق الزمن، معتبراً ذلك أول وأهم ما تتســم به الكعبــة من الفضائــل والمزايا.. » وســنذكر بعض أقوال المفسرين في الآتي .[٢]

و يقــول الكاتــب الحجازي عمر المضواحي ذو الاهتمام بالكتابة عن الأماكن المقدسة وتاريخها :

إن من أســرار الكعبــة أنها صرة

الأرض وموصولة بالبيت المعمور في السماء السابعة، وأول بيت وضع للناس بناه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وليس هناك في الكون بقعة أكثر مهابة وقدسية من هذه الحجرة المكعبة..

وعن موضوع العبادة والكعبة يقول:.. لم تعبد في تاريخها من دون الله قط، فقد كان العرب يعبدون الأصنام والأوثان حولها ولم يخصوها أبداً بالعبادة، حجّ إليها كل الأنبياء، ومجرد النظر إليها عبادة تعادل أجر عابد في غير مكة.

ثم يضيف المضواحي عما سجله قلمه عن هذه البقعة التي توصف بأنها قدس الأقداس الإسلامية:

حول الكعبة ثلاثة أسرار لا يوجد مثيل لها في الأرض، الحجر الأسود، ومقام إبراهيم، وهما ياقوتتان من يواقيت الجنة، وبئر زمزم وهو نهر من أنهار الجنة ينبع عينه المتدفق من تحت أعتاب الحجر الأسود.

بحث لغوي في الآية الكريمة

اللغة: بكة: لغة في مكة وسميت مكة لأنها قليلة الماء تقول العرب: مك الفصيل ضرع أمه وأمكه إذا امتص ما فيه من اللبن. وفي القاموس ما يدل على أنها سميت بذلك لأنها تمك الذنوب أي تمحوها وتزيلها. وذكروا أيضاً: أن أصل بكة البك وهو الزحم، يقال: بكه يبكه بكاً إذا زحمه ويباك الناس إذا ازدحموا فيها قال:

إذا الشريب أخذته الاكه

فخله حتى يبك بكه

فبكة مزدحم الناس للطواف وهو ما حول الكعبة من داخل المسجد الحرام. وقيل: سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أي تذلهم وتهلكهم إذا ألحدوا فيها بظلم ولم يمهلوا.

هذا وإن اشتقاق مكة يجوز أن يكون كاشتقاق بكة وإبدال الميم من الباء كقوله: «ضربة لازب ولازم»، ويجوز أن يكون من قولهم: أمتك الفصيل ما في ضرع الناقة إذا مص مصاً شديداً حتى لا يبقى منه شيء، ومك المشاش مكاً إذا تمشش بفيه فسميت مكة بذلك لقلة مائها ..

وأصل البركة الثبوت من قولهم برك بروكاً أو بركاً إذا ثبت على حاله، فالبركة ثبوت الخير بنموّه، ومنه البركة شبه الحوض يمسك الماء لثبوته فيه، ومنه قول الناس: تبارك الله لثبوته لم يزل ولا يزال وحده.

وقفة إعرابية مع الآية:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ﴾.

كلام مستأنف مسوق للدلالة على أن أول مسجد وضع للناس هو المسجد الحرام ثم البيت المقدس، وأول من بناه إبراهيم عليه السلام.

وإنّ واسمها وبيت مضاف إليه، ووضع فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره: هو، وللناس جار ومجرور متعلقان بوضع، والجملة صفة لبيت، وللذي اللام المفتوحة هي المزحلقة، والذي اسم موصول في محل رفع خبر إن، وببكة جار ومجرور متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول، ومباركاً حال من اسم الموصول أو من الضمير المستكن في متعلق الجار والمجرور، وهدى عطف على مباركاً، وللعالمين جار ومجرور متعلقان بهدى، أي هادياً لهم[٣]..

وذكروا في أسباب النزول

تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل من

الكعبــة لأنــه مهاجــر الأنبياء وفي الأرض المقدســة. وقال المسلمون: بل الكعبــة أفضل. فأنزل الله تعالى

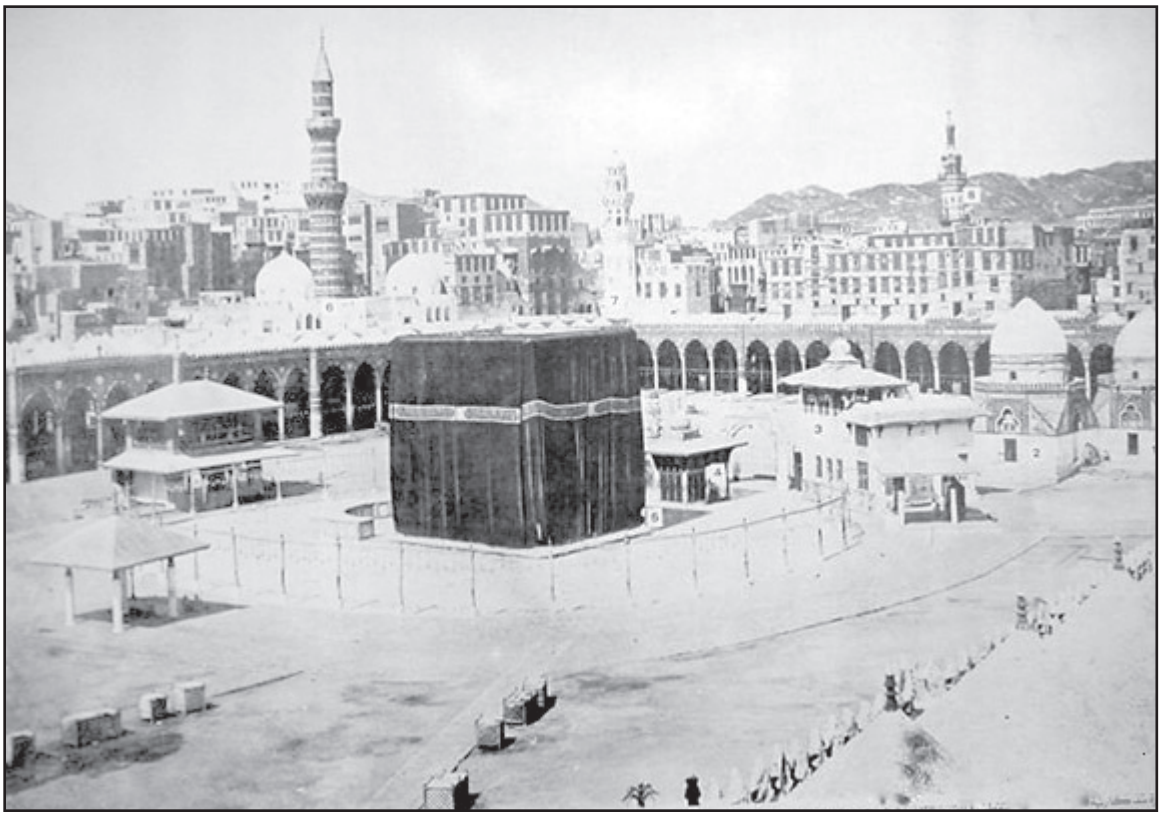

هذه الآية[٤].

الآية وأقوال المفسرين

قبــل أن نتعرض إلى بعض أقوال المفســرين نلقي ضوءاً بسيطاً على مفردات الآيــة المباركة؛ فالآية تتوفر على خصائص رائعــة هي صفات للبيت فإضافــة إلى أنه وصف بأول بيت ظهر على وجــه الأرض فيما يحملــه من مزايــا عاليــة وأهداف ســامية وفضائــل عظيمــة، راح يتحلــى بمزايــا أخرى وهــي كونه (مباركاً) والبركة تعــني لغةً النماء

والخير والزيادة والسعادة والرفعة، ونظراً لعدم وجود تحديد لها فهي واسعة ولعدم وجود ما يخصصها بنوع فهي تشمل المعنوية والمادية.. وكونه (هدى للعالمين) والهدى لغة الرشاد والطريق والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، وهنا يجد الإنسان ما يدلّه على دين الله ومغفرته ورضوانه ..

وقد اختلفت الأقوال بين كونه أول بيت وضع للناس، يعبد الله فيه مباركاً وهدى للعالمين ببكة وبين أنه هو أول بيت وضع في الأرض، وقيل: قبلها بألفي عام، وكانت زبدة بيضاء على الماء لأنه قد كانت قبله بيوت كثيرة. وبين أنه خلق قبل جميع الأرضين، أو عند خلق السماء والأرض، ثم دحِيت الأرضون من تحته. أو هو موضع الكعبة، موضع أوّل بيت وضعه الله في الأرض.

فقد روي عن علي بن الحسين عليه السلام: أن الله تعالى وضع تحت العرش بيتاً وهو البيت المعمور، وأمر الملائكة أن يطوفوا به، ثم أمر الملائكة الذين هم سكان الأرض أن يبنوا في الأرض بيتاً على مثاله وقدره، فبنوا واسمه الضراح، وأمر مَنْ في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

وروي أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام، وكانوا يحجّونه، فلما حجه آدم، قالت الملائكة: بر حجك يا آدم، حججنا هذا البيت قبلك بألف عام، ويُروى عن ابن عباس أنه قال: أراد به أنه أول بيت بناه آدم في الأرض، وقيل: هو أول بيت مبارك وضع في الأرض هدى للناس، يروى ذلك عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال الضحاك: أول بيت وضع فيه البركة. وقيل: أول بيت وضع للناس يحج إليه. وقيل: أول بيت جعل قبلة للناس. وقال الحسن

والكلبي: معناه: أول مسجد ومتعبد وضع للناس يعبد الله فيه كما قال الله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ يعني المساجد.

وبعد هذه الإشارات المختصرة نقرأ ما يقوله كل من صاحب الميزان وتفسير الأمثل بخصوص أنه أول بيت وكونه مباركاً وهدى للعالمين.

السيد الطباطبائي في ميزانه

و المستفاد من الآية إن أول بيت أنهم جمعوا في شبهتهم بين شبهة النسخ وبين انتساب الحكم إلى ملة إبراهيم فيكون محصل الشبهة: أن الكعبة كيف يمكن أن يكون قبلة في ملة إبراهيم مع أن الله جعل بيت المقدس قبلة، وهل هذا إلا القول بحكم نسخي في ملة إبراهيم الحقة مع كون النسخ محالاً باطلاً؟

و الجواب: إن الكعبة موضوعة للعبادة قبل غيرها كبيت المقدس فلقد بناها إبراهيم من غير شك ووضعها للعبادة، وفيها آيات بينات تدل على ذلك كمقام إبراهيم، وأما بيت المقدس فبانيه سليمان وهو بعد إبراهيم بقرون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ إلى آخر الآية، البيت معروف، والمراد بوضع البيت للناس وضعه لعبادتهم وهو أن يجعلوه ذريعة يتوسل به إلى عبادة الله سبحانه، ويستعان به فيها بأن يعبدالله فيه، وبقصده والمسير إليه وغير ذلك، والدليل على ذلك ما يشتمل عليه الكلام من كونه مباركاً وهدى للعالمين وغير ذلك، ويشعر به التعبير عن الكعبة بالذي ببكة فإن فيه تلويحاً إلى ازدحام الناس عنده في الطواف والصلاة وغيرهما من العبادات والمناسك، وأما كونه أول بيت بني على الأرض ووضع لينتفع به الناس فلا دلالة على ذلك

من جهة اللفظ.

و المراد ببكــة أرض البيت سميت بكة لازدحام الناس فيها، وربما قيل: إن بكــة هي مكة، وأنــه من تبديل الميم بــاء كما في قولهم: لازم ولازب وراتم وراتــب ونحو ذلك، وقيل: هو اســم للحرم، وقيل: المسجد، وقيل: المطاف.

و المباركة مفاعلة من البركة وهي الخير الكثــير، فالمباركة إفاضة الخير الكثير عليه وجعلــه فيه، وهي وإن كانت تشــمل الــبركات الدنيوية والأخروية، إلا أن ظاهر مقابلتها مع قوله: ﴿هُدىً لِلْعالَمِينَ﴾ أن المراد بها إفاضة الــبركات الدنيوية وعمدتها وفور الأرزاق وتوفر الهمم والدواعي إلى عمرانه بالحج إليه والحضور عنده والاحــترام له وإكرامه فيؤول المعنى إلى ما يتضمنه قولــه تعالى في دعوة إبراهيم:

﴿رَبَّنا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْــرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِــكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُــوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِــمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[٥].

وكونه هــدى هو إراءتــه للناس ســعادة آخرتهــم، وإيصالــه إياهم إلى الكرامــة والقــرب والزلفى بما وضعه الله للعبادة، وبما شــرع عنده من أقسام الطاعات والنسك ولم يزل منذ بناه إبراهيم مقصداً للقاصدين ومعبداً للعابدين...

فهو هدى بجميــع مراتب الهداية آخذة من الخطور الذهني إلى الانقطاع التام الذي لا يمسه إلا المطهرون من عباد الله المخلصين.

على أنه يهدي عالم المســلمين إلى ســعادتهم الدنيوية التي هي وحدة الكلمــة وائتــلاف الأمة وشــهادة منافعهــم، ويهــدي عــالم غيرهــم بإيقاظهــم وتنبيههــم إلى ثمــرات هــذه الوحــدة وائتــلاف القــوى

المختلفة المتشتتة.

ومن هنا يظهر أولاً: أنه هدى إلى سعادة الدنيا والآخرة كما أنه هدى بجميع مراتب الهداية، فالهداية مطلقة.

وثانياً: أنه هدى للعالمين لا لعالم خاص وجماعة مخصوصة كآل إبراهيم أو العرب أو المسلمين؛ وذلك لما فيه من سعة الهداية.

الشيخ المكارم الشيرازي في أمثله

«المبارك» يعني كثير الخير والبركة، وإنما كانت الكعبة المعظمة مباركة لأنها تعتبر بحق واحدة من أكثر نقاط الأرض بركة وخيراً، سواء الخير المادي، أم المعنوي.

وأما البركات المعنوية التي تتحلى بها هذه الأرض وهذه المنطقة من اجتماع الحجيج فيها، وما ينجم عن ذلك من حركة وتفاعل ووحدة، وما يصحبه من جاذبية ربانية تحيي الأنفس والقلوب وخاصة في موسم الحج فمما لا يخفى على أحد.

ولو أن المسلمين لم يقصروا اهتمامهم في موسم الحج على الجانب الصوري لهذه الفريضة بل أحيوا روحها، والتفتوا إلى فلسفتها، لاتضحت حينذاك البركات المعنوية، وتجلت للعيان أكثر فأكثر، هذا من الناحية المعنوية.

وأما من الناحية المادية، فإن هذه المدينة رغم أنها أقيمت في أرض قاحلة لا ماء فيها ولا عشب، ولا صلاحية فيها للزراعة والرعي بقيت على طول التاريخ واحدة من أكثر المدن عمراناً وحركة، وكانت دائماً من المناطق المؤهلة خير تأهيل للحياة، بل وللتجارة أيضاً.

أجل، إن الكعبة هدى للعالمين فهي تجتذب الملايين من الناس الذين يقطعون إليها البحار والوهاد، ويقصدونها من كلّ فج

عميــق ليجتمعوا في هــذا الملتقى العبــادي العظيــم، وهــم بذلــك يقيمون هــذه الفريضة فريضة الحجّ التي لم تزل تــؤدى بجلال عظيم منذ عهد الخليل عليه السلام.

ولقد كانت هذه البنية معظمة أبداً حتّى من قبل العرب الجاهليين، فهم كانوا يحجون إليها وإن مزجوا مناسك الحجّ ببعــض خرافاتهم وعقائدهم الباطلة، إلاَّ أنهــم ظلوا أوفياء لهذه المناسك على أنها دين إبراهيم، وقد كان لهذه المناسك والمراسم الناقصة، والخليطة أحياناً بالخرافات الجاهلية، أثرهــا في ســلوكهم، حيــث كانوا يرتدعون بسببها عن بعض المفاسد بعض الوقت، وهكذا كانت الكعبة سبباً للهداية حتّى للوثنيين...

إن لهذا البيت من الجواذب المعنوية ما لا يســتطيع أي أحــد أن يقاومها ويصمد أمام تأثيرها الأخّاذ.

إن في هذا البيــت معالم واضحة وعلائم ساطعة لعبادة الله وتوحيده، وفي تلــك النقطة المباركة من الآثار المعنويــة ما يبهــر العيــون ويأخذ بمجامع القلوب. وإن بقاء هذه الآثار والمعالم رغم كيد الكائدين وإفســاد المفســدين الذين كانوا يسعون إلى إزالتها ومحوها لَمن تلك الآيات التي يتحدث عنها القرآن في هذا الكلام العلوي.

الكعبة والروايات

هــذه مجموعة مــن الروايات التي تلقي بظلالها على هذا المكان المبارك رأينا ذكرها كما هــي من مصادرها الحديثية :

١- روي أنه إنما سميت كعبة لأنها مربعة، وصــارت مربعة لأنها بحذاء البيــت المعمور وهــو مربع، وصار البيت المعمــور مربعــاً لأنه بحذاء العرش وهو مربــع، وصار العرش مربعاً، لأن الكلمات التي بني عليها

الإسلام أربع وهي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

٢- ووضع البيت في وسط الأرض لأنه الموضع الذي من تحته دحيت الأرض، وليكون الفرض لأهل المشرق والمغرب في ذلك سواء.

٣- وفي الدر المنثور، أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن علي بن أبي طالب عليه السلام، في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾، قال: كانت البيوت قبله ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله.

وعن ابن شهرآشوب عن أمير المؤمنين عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ...﴾ فقال له رجل: أهو أول بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً، فيه الهدى والرحمة والبركة. وأول من بناه إبراهيم، ثم بناه قوم من العرب من جرهم، ثم هدم فبنته العمالقة ثم هدم فبناه قريش.

٤- عن خالد بن عرعرة قال: قام رجل إلى علي عليه السلام فقال: ألا تحدثني عن البيت: أهو أول بيت وضع في الأرض؟

قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً. وذكر تمام الخبر في كيفية بناء إبراهيم البيت.

٥- عن سماك، عن خالد بن عرعرة قال: قام رجل إلى عليّ عليه السلام فقال: ألا تخبرني عن البيت؟ أهو أول بيت وضع في الأرض؟

فقال: لا، ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً.

٦- وفي رواية عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: موضع البيت بكة، والقرية مكة.

وفي العلل، عن الصادق عليه السلام:

موضع البيت بكة، والقرية مكة.

وفيه، أيضاً عنه عليه السلام: إنما سميت بكة بكة لأن الناس يبكون فيها.

أقول: يعني يزدحمون.

وفيه، عن الباقر عليه السلام: إنما سميت مكة بكة لأنه يبك بها الرجال والنساء، والمرأة تصلي بين يديك، وعن يمينك، وعن شمالك ومعك ولا بأس بذلك إنما يكره ذلك في سائر البلدان.

و فيه، عن الباقر عليه السلام قال: لما أراد الله أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربن متن الماء حتى صار موجاً ثم أزبد فصار زبداً واحداً فجمعه في موضع البيت ثم جعله جبلاً من زبد ثم دحى الأرض من تحته، وهو قول الله: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً﴾، فأول بقعة خلقت من الأرض الكعبة، ثم مدت الأرض منها.

٧- عن أبي ذَر، رضي الله عنه، قال: «قلت: يا رسول الله، أي مسجِد وضع في الأرض أول؟

قال: «المسجِد الحرام».

قلت: ثم أَي؟ قال: «الْمسجِد الأقصى». قلت: كم بينهما؟

قال: «أربعون سنة».

قلت: ثم أي؟

قال: ثُم حيث أدركت الصلاةَ فَصل، فكلها مسجد».

٨- أخبرنا إبراهيم بن يزيد التيمي، عن أبيه، قال سمعت أبا ذر يقول: قلت: يا رسول الله! أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟

قال: «المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة، ثم أينما أدركتْكَ الصلاة بعد فصل، فإن الفضل فيه».

٩- عن ابن عباس قال: مكة من الفج إلى التنعيم، وبكة من البيت إلى البطحاء.

وأما بخصوص مـــا ورد في بعض الروايات عن دحو الأرض من تحت الكعبة، فالســـيد الطباطبائي يذهب الى عـــدم مخالفتها للكتـــاب حيث يقـــول: والأخبار في دحو الأرض من تحت الكعبة كثيرة، وليســـت مخالفة للكتـــاب، ولا أن هناك برهاناً يدفع ذلك غير ما كانـــت تزعمه القدماء من علماء الطبيعة أن الأرض عنصر بســـيط قديم، وقد بان بطلان هذا القول بما لا يحتاج إلى بيان.

ثم يقول: «و هذا تفسير ما ورد من الروايـــات في أن الكعبة أول بيت، أي بقعة في الأرض، وإن كان الظاهر من الآية ما تشتمل عليه الروايتان.. أي رواية ابن شـــهر آشوب ورواية الدر المنثور المذكورتان أعلاه».

الكعبة والطواف

في أخبار مكة حديث منسوب إلى محمد بن علي بن الحســـين عليهما السلام وفي الأعـــلام حدثنا الإمـــام محمد الباقر بن الإمام علي زيـــن العابدين بن الحســـين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام أنه قـــال: «كنت مع أبي علي بن الحسين بمكة فبينما هو يطـــوف بالبيت وأنـــا وراءه إذ جاءه رجل شرجع من الرجال يقول طويل، فوضع يده علـــى ظهر أبي، فالتفت أبي إليه فقال الرجل: السلام عليك يا ابن بنت رســـول الله، إني أريد أن أسألك، فســـكت أبي وأنا والرجل خلفه حتى فرغ من أسبوعه، فدخل الحجر، فقام تحت الميزاب، فقمت أنا والرجل خلفه فصلى ركعتي أسبوعه ثم اســـتوى قاعـــداً، فالتفـــت إليّ، فقمت فجلســـت إلى جنبه، فقال: يا محمد! فأين هذا الســـائل؟ فأومأت إلى الرجل، فجـــاء فجلس بين يدي أبـــي فقال له أبي: عم تســـأل؟ قال: أســـألك عن بدء هذا الطواف بهذا البيـــت لم كان وأنى كان وحيث كان

وكيف كان؟ فقال له أبي: نعم من أين أنت؟ قال: من أهل الشام، قال: أين مسكنك؟ قال: في بيت المقدس قال: فهل قرأت الكتابين؟ يعني التوراة والإنجيل قال الرجل: نعم قال أبي: يا أخا أهل الشام! احفظ ولا تروين عني إلا حقاً؛ أما بدء هذا الطواف بهذا البيت فإن الله تبارك وتعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّى جاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالت الملائكة: أي رب أخليفة من غيرنا ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون، ويتباغضون ويتباغون؟ أي رب اجعل ذلك الخليفة منا فنحن لا نفسد فيها، ولا نسفك الدماء، ولا نتباغض، ولا نتحاسد، ولا نتباغى، ونحن نسبح بحمدك، ونقدس لك، ونطيعك، ولا نعصيك. فقال الله تعالى: إني أعلم ما لا تعلمون قال: فظنت الملائكة أن ما قالوا رداً على ربهم عز وجل وأنه قد غضب من قولهم، فلاذوا بالعرش، ورفعوا رؤوسهم، وأشاروا بالأصابع يتضرعون، ويبكون إشفاقاً لغضبه وطافوا بالعرش ثلاث ساعات، فنظر الله إليهم فنزلت الرحمة عليهم، فوضع الله تعالى تحت العرش بيتاً على أربع أساطين من زبرجد وغشاهن بياقوتة حمراء، وسمى ذلك البيت الضراح، ثم قال الله تعالى للملائكة: طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش، قال: فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش وصار أهون عليهم من العرش، وهو البيت المعمور الذي ذكره الله عز وجل، يدخله في كل يوم وليلة سبعون ألف ملك لا يعودون فيه أبداً، ثم إن الله سبحانه وتعالى بعث ملائكة فقال لهم: أبنوا لي بيتاً في الأرض بمثاله وقدره، فأمر الله سبحانه من في الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، فقال الرجل: صدقت يا ابن بنت

رسول الله صلى الله عليه وآله هكذا كان»[٦].

الكعبة موقعاً وتأريخياً

نبدأ أولاً بذكر موقع الكعبة المشرفة، فهي أصل مدينة مكة المكرمة، وتقع في وسط المسجد الحرام على شكل حجرة كبيرة مرتفعة البناء مربعة الشكل، ويبلغ ارتفاعها خمسة عشر متراً، ثم نشأت حول البيت الحرام مدينة مكة المكرمة التي صارت موطن قبيلة قريش الكبرى التي تضم ثلاثاً وعشرين قبيلة عربية ذرية إسماعيل عليه السلام، كما تقع الكعبة المشرفة في المركز الوسط للكرة الأرضية، ويعلوها في السماوات العلى البيت المعمور الذي تطوف حوله الملائكة.

إن مكة المكرمة تقع غرب الحجاز في أرض محاطة بالجبال من جميع جهاتها، ولا يوجد لها سوى أربع مداخل، هي المدخل الشمالي الشرقي، ويفضي إلى وادي منى، والمدخل الشمالي الغربي ويفضي إلى وادي فاطمة، والمدخل الجنوبي ويؤدي إلى اليمن، والمدخل الغربي ويؤدي إلى سيناء جدة.

وتحدث المصادر الإسلامية والتاريخية أن الكعبة أسسها آدم عليه السلام وهناك من يذهب إلى أن الملائكة التي لم تنقطع عن زيارتها أبدأ منذ بذرتها الأولى واستمرت زياراتها لهذه البقعة الطاهرة حتى ورد عن ابن عباس:

«أن جبريل عليه السلام وقف على رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه عصابة حمراء قد علاها الغبار فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله:

ما هذا الغبار أرى على عصابتك أيها الروح الأمين ؟

قال: إني زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن، فهذا الغبار الذي ترى مما تثير بأجنحتها»[٧].

فالملائكة هم الذين قاموا ببناء

الكعبة في هذا المكان بأمر السماء وبعد أن أذن لهم الله تعالى بذلك قبل خلق الإنسان مما يدل على عراقة تاريخها وأنها تعرضت للتهديم بسبب الطوفان الذي وقع في عهد النبي نوح عليه السلام فجددها إبراهيم الخليل عليه السلام. ومن الجدير ذكره أن الكعبة جدد بناؤها اثنتي عشرة مرة.

لقد ظلت الكعبة المباركة مندثرة زمناً تحت الرمال، حتى عيّن الله سبحانه وتعالى موقع البيت لسيدنا إبراهيم عليه السلام وساعده في عمارتها سيدنا إسماعيل عليه السلام، وكان ذلك منذ قرابة أربعة آلاف عام، وبناء سيدنا إبراهيم يعتبر البناء الثاني للكعبة المشرفة، حيث ورد في القرآن الكريم أن سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل رفعا قواعد البيت، مما يدل على أنه كان موجوداً من قبل ذلك، وهو البناء الذي شيده الملائكة المكرمون؛

ويصف أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام بأنها كانت بناء ذا جوانب أربعة، ارتفاعها تسعة أذرع وكان بابها إلى الأرض، وجعل سيدنا إبراهيم عليه السلام في جدارها حجراً أسود علامة على بداية الطواف حولها، ثم أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بأن يؤذن في الناس بالحج، وقد أسمع الله تعالى جميع خلقه هذا النداء.. وتفضل الله سبحانه وتعالى فجعل هذا البيت حرماً طاهراً آمناً يلجأ إليه الناس ويأمنون فيه على أنفسهم. وأصبحت الكعبة بعد السنة الثانية من الهجرة النبوية الشريفة قبلة المسلمين، يتجهون إليها في صلاتهم.

هذا، وإن اختيار أعرق البيوت وأقدمها ليكون قبلة للمسلمين، يعد أفضل من اختيار أي مكان وأي موقع آخر.. فالآية تشير إلى أسبقية

الكعبة على جميع الأماكن الأُخرى، وإلى تاريخها الطويل الضارب في أعماق الزمن، معتبراً ذلك أول وأهم ما تتسم به الآية المذكورة، وأن هدفها أن تكون للناس، وهي بيت الله كما تسمى وضعت لأجل الناس، وهذا التعبير يكشف عن حقيقة هامة وهي: أن كلّ ما يكون باسم الله ويكون له، يجب أن يكون فى خدمة الناس من عباده، وأن كلّ ما يكون لخدمة الناس وخير العباد فهو لله سبحانه.

وقدم الكعبة وأنها أول بيت وضع في هذه الأرض يجعل لها فضيلة وميزة على غيرها من البيوت الأخرى.

ويتضح هذا مما دار بين الإمام الصادق عليه السلام وأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي، وبين الإمام موسى الكاظم عليه السلام والمهدي العباسي حينما أرادوا توسعة المسجد الحرام بعد أن أخذ عدد المسلمين في الازدياد، وعلى أثر ذلك كان يتزايد عدد الحجاج والوافدين إلى البيت الحرام، ولهذا كان المسجد الحرام يتعرض للتوسعة المستمرة على أيدي الخلفاء في العصور المختلفة.

فقد جاء في تفسير العياشي أن أبا جعفر المنصور طلب أن يشتري من أهل مكة بيوتهم ليزيدها في المسجد، فأبوا فأرغبهم، فامتنعوا فضاق بذلك، فأتى أبا عبدالله الصادق عليه السلام فقال له: إني سألت هؤلاء شيئاً من منازلهم، وأفنيتهم لنزيد في المسجد، وقد منعوني ذلك فقد غمّني غماً شديداً، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «أيغمك ذلك وحجتك عليهم فيه ظاهرة؟» فقال: وبما أحتج عليهم؟ فقال: «بكتاب الله»، فقال: في أي موضع؟ فقال: «قول الله عزّوجلّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾

قد أخبرك الله أن أول بيت وضع

للنـــاس هو الذي ببكـــة، فإن كانوا هم تولوا قبل البيت فلهم أفنيتهم، وإن كان البيت قبلهـــم فله فناؤه».

فدعاهم أبو جعفـــر المنصور فاحتج عليهم بهـــذا، فقالوا لـــه: اصنع ما أحببت.

وقد جاء في ذلك التفسير أيضاً أن المهدي العباســـي لما بنى في المسجد الحـــرام بقيـــت دارٌ احتـــج إليها في تربيع المســـجد، فطلبها من أربابها فامتنعوا، فســـأل عـــن ذلك الفقهاء فـــكلّ قال له: إنه لا ينبغي أن يدخل شـــيئاً في المسجد الحرام غصباً، فقال له علي بن يقطين: يا أمير المؤمنين! لو أنك كتبت إلى موسى بن جعفر عليه السلام لأخبرك بوجه الأمر في ذلك، فكتب إلى والي المدينة أن يسأل موسى بن جعفـــر عليه السلام عن دار أردنا أن ندخلها في المســـجد الحـــرام فامتنـــع علينا صاحبها، فكيـــف المخرج من ذلك؟ فقال ذلك لأبي الحســـن عليه السلام، فقال أبو الحســـن عليه السلام: ولابدّ من الجواب في هـــذا؟ فقال له: الأمـــر لابدّ منه، فقال له: اكتب:

«بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم، إن كانت الكعبة هـــي النازلة بالناس فالناس أولى بفنائها، وإن كان الناس هم النازلون بفنـــاء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها».

فلما أتى الكتاب إلى المهدي أخذ الكتاب فقبله لفرحه الشـــديد، ثم أمـــر بهدم الدار فأتى أهل الدار أبا الحسن عليه السلام فسألوه أن يكتب لهم إلى المهدي كتابـــاً في ثمن دورهم فكتب إليه أن ارضخ لهم شيئاً فأرضاهم.

يقول الشيخ المكارم الشيرازي:

«إن في هاتين الروايتين اســـتدلالاً لطيفـــاً يتفـــق تمامـــاً مـــع المقاييس والموازيـــن القانونيـــة المعمول بها أيضاً، فإن الاستدلال يقول: إن لمعبد تقصده الجماهـــير كالكعبة، قد بني يوم بـــني على أرض لا أحـــد فيها،

الحــق والأولوية في تلــك الأرض بقدر حاجتــه، وحيث إن الحاجة يوم أُسّــس لم تكن تدعــو إلى أكثر من تلك المســاحة التي أقيم عليها أول مرّة كان للناس أن يسكنوا في حريم الكعبة، أما الآن وقد اشتدت الحاجة إلى مساحة أوســع كما كانت عليه لتســع الحجيج، فإن للكعبة الحقّ في أن تستخدم أولويتها بالأرض»[٨].

وجاء الإسلام

حظيــت الكعبة المشــرفة في ظل الإسلام ورســالته الخالدة ورسوله العظيم على مكانة كبيرة تتناســب وما أعدته لها الســماء من دور مهم وخطــير في بنــاء الإنســان المؤمن والمجتمع المؤمن والأمة المؤمنة نفسياً وروحياً ودينياً ووعياً ومعرفة ... لهذا كان هــمّ الرســول صلى الله عليه وآله وكان هدفه الأول بعــد الانتصــار على أعدائه مشركي مكة هو إعادة دورها المرسوم لها منــذ أذان نــبي الله إبراهيم عليه السلام والذي غيبه المشــركون وشوّهوه.. فأصــدر صلى الله عليه وآله أوامره بعــد فتح مكة بتطهير الكعبة من الأصنام والأوثان والتماثيــل، وراح يكســو الكعبة بكسوة من اليمن، وأمر بتطييبها.

ومن الثابت أن حدود المســجد الحرام هي الدائــرة المعروفة، دائرة المطــاف نفســها، وهــذه الدائرة لم يكن لها سور ولا جدار معين متميز وإنما كانــت بيوت قريش التي تحيط بدائرة المطاف تشــكّل دور السور. وقد جعلوا بــين كل بيتين أو ثلاثة ممــراً ومنفذاً يدخل النــاس منه إلى المسجد.

إذن لم يكــن للكعبــة في عهــد النبي صلى الله عليه وآله ســور متميز يحيط بها، بل كانت بيوت قريش المجاورة له تحيط بهــا وتفتح على المطاف الذي يحيط بجسم الكعبة، ولم يحدث تغيير يذكر في عمارة الكعبة في عهد الرسول صلى الله عليه وآله

ولا في عهد الخلافة الأولى.

ولما كان عهد الخلافة الثانية، ضاقت مساحة المطاف حول الكعبة بسبب زيادة أعداد المسلمين الآتين للحج، فطلب الخليفة عمر بن الخطاب من أهل قريش أن يفسحوا مكاناً لتوسيع المطاف، وذلك بشراء منازلهم المطلّة على الكعبة، فلما رفضوا ذلك نزع ملكيتها ووضع الأموال في بيت المال لمن يطلبها، وهدمت البيوت المحيطة بالمطاف القديم ووسعت مساحة المطاف الذي يحيط بالكعبة، وحتى لا تزحف بيوت قريش مرة أخرى على المطاف الذي يحيط بالكعبة قام ببناء سور حول المطاف من الخارج بارتفاع قامة الإنسان، وجعل فيه عدداً من الأبواب وكان ذلك في السنة السابعة عشرة من الهجرة النبوية الشريفة.

وفي عام ٢٦ هـ، أجرى الخليفة عثمان بن عفان توسعة أخرى حول الكعبة المشرفة وسورها حيث تم توسيع المطاف بعد هدم عدد آخر من بيوت أهل قريش المحيطة بسورها الخارجي الذي بناه الخليفة الثاني من قبل، كما أنه بنى لأول مرة سقائف ثلاثة حول مساحة المطاف خصّصها للصلاة، وكانت هذه السقائف تؤدي إلى أروقة؛ وبهذه التوسعة يكون الخليفة عثمان بن عفان أول من بنى مسجداً محاطاً بسور حول بناء الكعبة المشرفة.

ولم يكن لهذا المسجد منبر حتى أحضر معاوية بن أبي سفيان منبراً معه حين حضوره لأخذ البيعة لابنه يزيد من أهل مكة، ووضع المنبر في المسجد وكان ذلك عام ٤٧ هـ.

وفي الفترة التي سيطر فيها عبدالله بن الزبير على مكة المكرمة أجرى بعض التعديلات على عمارة الكعبة، وعندما سيطر الأمويون مرة أخرى على مقاليد الحكم أعادوا بناء

الكعبة على ما كانت عليه وقت الرسول ﷺ وكان ذلك على يد الحجاج بن يوسف، من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان.

وظلت الكعبة المشرفة على هذا الشكل لمدة لا تقل عن ألف عام بدون تغيير يذكر، اللهم إلا الإضافات التي قام بها الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي أجرى عمارة كبيرة في المسجد الحرام، وكذلك الإضافة التي تمت في عهد الخليفة المهدي العباسي، وأصبحت الكعبة تتوسط صحن المسجد الحرام.

في عهد المماليك

ولما جاء حكم المماليك اهتمّ سلاطينهم بالمسجد الحرام، واعتنوا به ووالوه بالإصلاح والتجديد، فأوقفوا عليه الأراضي الزراعية والعقارات في مصر وبلاد الشام، وكان ذلك في عهد السلطان بيبرس البندقداري والمنصور قلاوون، والناصر محمد بن قلاوون والأشرف شعبان..

ومن العمارات الهامة تلك التي قام بها السلطان الناصر فرج بن برقوق عام ٨٠٢ هـ، ففي يوم السبت ٢٨ شوال عام ٨٠٢ هـ، اجتاحت النيران رباطاً عند باب الحَزْوَرَة بالجانب الغربي من المسجد الحرام، ولم تلبث النيران أن انتقلت إلى سقف المسجد نفسه وعمت الجانب الغربي وأجزاء من الرواقين المقدمين من الجانب الشامي، وأدى الحريق إلى تخريب ثلث المسجد وتدمير مائة وثلاثين عموداً من أعمدة المسجد، فقام السلطان الناصر فرج بإصلاح ما فسد من البناء.

ومن أهم العمارة الأخرى التي قام بها السلطان الأشرف برسباي، فقد شملت المسجد كله تقريباً، إذ تم فيها إقامة عشرات من العقود الحجرية

وتجديد الكثير من الأبواب وتعمير السقوف وطلائها وإصلاح سقف الكعبة المشرفة ورخامها وأخشابها وحلقات الحديد التي تربط كسوة الكعبة المشرفة، ثم كانت عمارة السلطان قايتباي عام ٨٨٥ هـ وشملت أجزاء كبيرة من المسجد الحرام وأبوابه ومآذنه.

في العهد العثماني

وانتقلت السيادة على الحجاز إلى العثمانيين، وبالتالي رعاية الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة، وصار السلطان العثماني يلقب بخادم الحرمين الشريفين، وعلى الرغم من السيادة العثمانية على الأمصار كافة إلا أن بلاد مصر كولاية عثمانية ظلّت تتولى عمارة المسجد الحرام بأموال ومواد بناء ومهندسين وعمال مصريين، أجريت العمارة الأولى بعد زوال دولة المماليك على المسجد الحرام عام ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م، حين رأى السلطان سليم الثاني أن يجدّد سقف الأروقة الأربعة للمسجد الحرام، وفي عهد السلطان أحمد (١٠١٢ هـ ١٠٢٢ هـ) حدث تصدع في جدران الكعبة وكذلك في جدار الحجر، وكان من رأي السلطان هدم بناء الكعبة وإعادة بنائها من جديد، إلا أن المهندسين أشاروا عليه بدلاً من ذلك بعمل نطاق من النحاس الأصفر المطلي بالذهب، واحد علوي وآخر سفلي، ورغم ذلك لم تصمد الكعبة طويلاً وتهدمت جدرانها عقب أمطار غزيرة عام ١٠٣٩ هـ، فأمر السلطان مراد الرابع بتجديدها على أيدي مهندسين مصريين عام ١٠٤٠ هـ.

وكنتيجة للعمائر المختلفة التي تمت بالكعبة المشرفة في العهد العثماني، صار الحرم مستطيلاً أقرب إلى التربيع، وأصبحت المظلات التي

تحيط بالمطاف من ثلاثة أروقة مقامة على صفوف من العقود والأعمدة الرخامية، ويغطي كل تربيع قبة ضحلة مقامة على مثلثات كروية، وتقوم الكعبة في وسط المسجد الحرام من الخارج في المتوسط ١٩٢ متراً وعرضه ١٣٢ متراً، وكان بخارج المطاف سقائف ثلاث على أعمدة من الرخام تواجه إحداها الجانب الغربي وكان يصلي بها إمام المالكية، والثانية تواجه الجانب الشمالي ويصلي بها إمام الحنفية، والثالثة تواجه الجانب الجنوبي ويصلي بها إمام الحنابلة، أما إمام الشافعية فكان يصلي خلف مقام إبراهيم.

وبجوار المطاف في شرقي الكعبة نجد المنبر الرخامي، وكان قد بعث به السلطان سليمان عام ٩٦٦ هـ إلى المسجد الحرام حيث أقيم بدلاً من المنبر الخشبي، وكان هذا المنبر مصنوعاً بدقة وإتقان يشعران برقي الصناعة في ذلك العصر.

الأسماء

هناك أسماء كثيرة ذكروها لمكة المكرمة، ولكثرتها ذكر قطب الدين النهروانـي أن الفيروزآبادي قد صنف رسالة مفصلة في ذكرها كما في الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، وأن النووي قال في هذا الخصوص: إننا لا نعرف من بين المدن ما يضاهي مكة والمدينة بكثرة الأسماء، ورد هذا في معجم البلدان، وجامع اللطيف. وحتى أن محمد مهدي فقيهي انتهى به التقصي للوقوف على سبعين اسماً من أسماء مكة كما في مقالته في العدد الأول من مجلة ميقات الحج «أسماء مكة» صفحة ١٨٧.

وهنا نكتفي بذكر عدد من أسمائها:

مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين،

والمأمون، والمقدسة، والناسّة بالنون، وبالباء أيضاً والحاطمة، والنساسة والرأس، وكوثى أو كوثاء، والبلدة، والبَنِيَّة، والكعبة.

وقد ورد منها أربعة في القرآن الكريم:

مكة كما في سورة الفتح٢٤:

﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾.

وكذلك وردت بصيغة بكة، كما في الآية٩٦ من آل عمران:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وهُدىً لِلْعالَمِينَ﴾.

ووردت باسم أم القرى في الآية ٩٢ من سورة الأنعام:

﴿وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾.

كما وردت باسم البلد الأمين كما في الآية ٣ من سورة التين:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾.

وفي سبب تسميتها ببكة وجوه إضافة إلى ما ذكرناه في اللغة أعلاه:

١ـ لقلة مائها وزرعها وقلة خصبها، فهي مأخوذة من مككت العظم إذا لم تترك فيه شيئاً. وهو قول الأنباري.

٢ـ لأن من ظلم فيها مكّه الله، أي استقصاه بالهلاك.

٣ـ لأنها وسط الأرض كالمخ وسط العظم .وهو قول الخليل بن أحمد.

وبكة قيل: إنها المسجد، ومكة الحرم كله يدخل فيه البيوت عن الزهري وضمرة بن ربيعة، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام وقيل: بطن مكة عن أبي عبيدة. وقيل: بكة موضع البيت والمطاف ومكة اسم البلدة وعليه الأكثر. وقيل: بكة هي مكة والعرب تبدل الباء ميماً مثل سبد رأسه وسمده عن مجاهد والضحاك[٩].

والكعبة في اللغة العربية تسمّى لتكعيبها وهو تربيعها. وقيل: لعلوها ونتوئها.. وأكثر بيوت العرب مدورة لا مربعة. وقد وردت أسماؤها في الآيات القرآنية التالية :

الكعبة: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ﴾(١٠).

البيت: قال عز من قائل:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ﴾(١١).

وقال الله تعالى:

﴿فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾(١٢).

البيت العتيق: قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(١٣).

وقال سبحانه وتعالى:

﴿لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(١٤).

البيت الحرام: قال الله جل جلاله:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلاَ الْهَدْىَ وَلاَ الْقَلائِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً﴾(١٥).

وقال عز من قائل:

﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ﴾(١٦).

البيت المعمور: كما في قوله تعالى:

﴿وَالطُّورِ * وَكِتابٍ مَسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾(١٧).

البيت المحرم: قال تعالى:

﴿رَبَّنا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾(١٨).

أما لفظة «الكعبة» فقد ذكرت في القرآن الكريم في موضعين هما:

قال الله تعالى:

﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِى السَّماواتِ وَما فِى الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُوانْتِقامٍ﴾.

أركان الكعبة

أربعة أركان للكعبة المشرفة، جاء ترتيبها حسب بداية الطواف فيما جاءت تسميتها باعتبار اتجاهاتها الأربعة تارةً، وتارة أخرى باعتبار خصوصية فيها.

الركن الشرقي: وهو الركن الذي يكون بجوار باب الكعبة ويُقابلُ بئر زمزم تقريباً، ويُسمى بالركن الشرقي لكونه باتجاه المشرق تقريباً، ويُسمَّى أيضاً بالركن الأسود لأن الحجر الأسود مُثَبَّتٌ فيه.

الركن الشمالي: وهو الركن الذي يلي الركن الشرقي حسب جهة الحركة في الطواف، ويُسمَّى بالركن الشمالي لمواجهته للشمال تقريباً، وهو الركن الذي يكون على الجانب الشرقي من حِجْرِ إسماعيل، ويُسمَّى أيضاً بالركن العراقي لكونه باتجاه العراق.

الركن الغربي: وهو الركن الذي يلي الركن الشمالي حسب جهة الحركة في الطواف، ويُسمَّى بالركن الغربي لمواجهته للمغرب تقريباً، وهو الرُكن الذي يكون على الجانب الغربي من حِجْرِ إسماعيل.

الركن الجنوبي: وهو الركن

الــذي يلي الركن الغربي حســب جهــة الحركة في الطواف، ويُســمَّى بالركــن الجنوبي لمواجهته للجنوب تقريباً، ويُسمَّى أيضاً بالمُستجار.

إضاءة

ومن الحوادث المهمة التي حدثت في الكعبة المشرفة، الولادة المباركة في جوفها لأمــير المؤمنين علي بن أبي طالــب عليه السلام، ومن الواضــح أن لهذه الحادثــة دلالات واضحة على منزلة الإمام أمــير المؤمنــين عليه السلام ومكانته المميزة، وهي فضيلة خصّه الله تعالى بها دون غيره.

فقــد روى الحافظ أبــو عبد الله محمد بن يوســف القرشي الكنجي الشافعي المتوفى ســنة: ٦٥٨ هجرية وآخرون من العلماء أنه: « عليٌ بن أبي طالب عليه السلام لم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله الحرام سواه، إكراماً له بذلك وإجلالاً لمحله في التعظيم».

وهناك العديد مــن المصادر تنقل هذه الحادثــة توفر عليها كتاب علي وليد الكعبة، للشــيخ الحجة الميرزا محمــد علــي الغــروي الأردوبادي رحمه‌الله وقد تكفل بدراسة هذا الأمر ومصادره الكثيرة وما ورد فيها(١٩).

هناك أجــزاء هامة تحتــل مكانها بالمسجد الحرام وحول الكعبة، منها:

المطــاف: وهو البقعــة التي تحيط بالكعبة، وهو مكسو بالرخام، ويبدأ الطواف من الحجر الأسود، ثم يجعل الكعبة على يساره ويمضي ويطوف سبعة أشواط حول الكعبة.

الحجر الأســود: وموقعه بالركن الجنوبي الشرقي من الكعبة، وأهمية هــذا الحج، أنه يمــين الله في الأرض يصافح بها عبــاده المؤمنين، كما ورد وهو حجر ثقيل بيضاوي الشــكل أســود اللون يميل إلى الحمرة وقطره ٣٠ ســم ويحيط به، وأنــه من وضع ســيدنا إبراهيم عليه السلام جعله بالكعبة

ليبدأ الحجاج الطواف من عنده، فلا يحدث تقابل أو اضطراب بين الطائفين، وقد اختلف العلماء والمؤرخون حول حقيقة الحجر الأسود، فنقل النويري عن ابن عباس قوله: ليس في الأرض من الجنة إلا الركن الأسود فإنه جوهرة من جواهر الجنة، ومن التقاليد العامة بين المسلمين أن هذا الحجر المقدس أصله من الجنة وكان لونه أبيض، فاسودّ نتيجة ارتكاب أهل الأرض للمعاصي والآثام، وعلى كل أن من يعرف معنى العبادة يقطع بأن الملين لا يعبدون الحجر الأسود ولا الكعبة، ولكن يعبدون الله تعالى باتباع تعاليم شرعه وأداء مناسك أمرهم بها في هذه البقعة المباركة ذات المعالم القيمة والآثار المباركة..

أما الإطار الفضي فيقال: إن عبدالله بن الزبير أول من ربط الحجر الأسود بالفضة، ثم تتابع الخلفاء في عمل الأطواق من فضة كلما اقتضت الضرورة لذلك.

الشاذروان: وهو جدار يلاصق جدار الكعبة مكسو بالرخام ارتفاعه حوالي ٥٠ سم، وأصل الشاذروان هو الأرض التي أنقصتها قريش من عرض جدار أساس الكعبة حين أعيد بناؤها وقت قصي بن كلاب.

الملتزم: وهو مكان يقع بين الحجر الأسود وباب الكعبة المعظمة ومقداره نحو مترين ويسمى بالملتزم، وسمي بهذه التسمية لأن الحاج يلتزم هذا المكان للدعاء فيه، فهو موضع مبارك لإجابة الدعاء حيث يسنّ به الدعاء مع إلصاق الخدين والصدر والذراعين والكفين.. وكان الرسول ﷺ يدعو عنده وعند الحطيم.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن ما بين الحجر والباب لا يقوم فيه إنسان فيدعو الله تعالى بشيء إلا رأى في حاجته بعض الذي يحب..

الحطيـــم: وإنما سمـــي بالحطيم إما لكثرة ازدحام الناس والطائفين فيه وإما لكونه موضع غفران الذنوب، وغفرانهـــا بمنزلـــة تحطيمهـــا، وهو موضع توبة آدم.

ويقول الكاتب عمـــر المضواحي عن الحطيم: على يسار باب الكعبة المهيب وبين الملتزم والحجر الأسود إلى الداخـــل منها يقع مكان (حطيم الســـيئات) حيث يتـــم فيه التضرع بالدعوات.

باب التوبة: وفي الجهة الشـــمالية والـــكلام مـــا زال للمضواحي من الكعبـــة، على يمـــين الداخل، باب صغير يعـــرف ببـــاب «التوبة» وهو في الصنعة والإتقان، يمتاز بمقاســـاته العادية وهو بنســـبة قياس واحد إلى ثمانية مقارنـــة بباب الكعبة الخارجي الوافـــر البهـــاء والضخامة، ويؤدي باب التوبـــة المصنوع من أندر قطع الأخشاب المكسوة بصفائح الذهب والفضة المشغولة، إلى درج حلزوني من الزجاج السميك يصل إلى سطح الكعبة.

حجر إسماعيل: هـــو محل بني فيه جدار هلالي الشـــكل عند الضلع الشـــمالي الغربي من الكعبة، وقد يكون من ضمن مســـاحته جزء من الكعبة.

الميزاب: للكعبـــة ميزاب وضعته قريش حين بنتها ســـنة ٣٥ من ولادة النبيﷺ علـــى ســـطح الكعبة في الجهة الشمالية بين الركن الشمالي والركـــن الغربي حـــين عملت لها ســـقفاً وكانت قبل ذلك بلا سقف، ويمتد نحو حجر إسماعيلﷺ ليسكب ماءه المتجمع على سطح الكعبة عند سقوط الأمطار أو غسل سطحها في بطن الحجر.

قال الأزرقـــي: وذرع طول الميزاب أربعـــة أذرع، وســـعته ثمانية أصابع في ارتفاع مثلهـــا. والميزاب ملبس

بصفايح ذهب داخله وخارجه، وكان الذي جعل عليه الذهب الوليد بن عبد الملك[٢٠].

وقد وقع تغيير وتبديل في ميزاب الكعبة المشرفة، وذلك لسببين: أحدهما كان إذا اعتراه خراب عمل غيره، والثاني كان بعض الملوك أو الأغنياء من عظماء المسلمين يهدي للكعبة المعظمة ميزاباً فيركب في الكعبة المشرفة، وينزع الذي قبله.

والميزاب الموجود في الكعبة المشرفة إلى العصر الحاضر هو الميزاب الذي عمله السلطان عبد المجيد خان بن السلطان محمود خان، عمله في القسطنطينية، ثم جيء به وركب سنة ١٢٧٦ هـ، وهذا الميزاب مصفح بالذهب. وقد أدخلت عليه ترميمات جزئية في المسامير العلوية المانعة لوقوف الحمام عليه.

مقام إبراهيم: وهو مكان الحجر الذي قام عليه سيدنا إبراهيم عند بنائه للكعبة وصلّى عنده وتركه ملاصقاً لجدار الكعبة ثم غير مكانه بعيداً عن الجدار، وقد ورد في القرآن الكريم:

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

ويقع إلى جهة الشرق من الكعبة، وقد قام الخليفة المهدي العباسي بإحاطته بحليات ذهبية. وإنما أشرت إلى المقام هنا لكونه كان في بدايته ملاصقاً لجدار الكعبة وإلا فهو ليس جزءاً من بناء الكعبة الآن.

المآذن: وللمسجد الحرام سبع مآذن إلى جانب مآذن حديثة أضيفت له:

مئذنة باب العمرة: وتقع في الجهة الشمالية الغربية من المسجد الحرام، وبناها الخليفة العباسي في عمارته للمسجد عام ١٣٩ هـ، ثم جددها صاحب الموصل عام ٥٥١ هـ، ثم أصلحت مرة ثالثة عام ٨٤٣ هـ زمن السلطان حقمق المملوكي، ثم هدمها

السلطان سليم خان وأعاد بناءها.

مئذنة باب الوداع: وقد أنشأها الخليفة المهدي العباسي ثم جددها السلطان المملوكي شعبان، وكانت قد سقطت عام ٧٧١ هـ فجددها عام ٧٧٢ هـ.

مئذنة باب علي: أنشأها الخليفة المهدي العباسي عام ١٦٨ هـ ثم أعاد بناءها السلطان العثماني سليمان خان.

هذا بالإضافة إلى مئذنة قايتباي التي تجاور باب السلام.

ومئذنة باب الزيارة: التي أنشأها الخليفة المعتضد العباسي عام ٢٤٨ هـ ثم جددها السلطان الأشرف أبو النصر برسباي سلطان مصر وبلاد الشام والحجاز عام ٨٢٦ هـ.

والمئذنة السليمانية: التي بناها السلطان سليمان العثماني.

وكان يؤذن من على جميع المآذن في الصلوات الخمس قبل إدخال الكهرباء، وكان المؤذنون يرددون ما يقوله رئيس المؤذنين أو شيخهم الذي كان يؤذن من فوق قبة بئر زمزم ويتبعه الجميع.

الأبواب

نبدأ أولاً بباب الكعبة المشرفة الذي يرتفع عن أرض المطاف بحوالي ٢,٥ وارتفاع الباب ٣,٠٦ متر وعرضه ١,٦٨، متر والباب الموجود اليوم هدية الملك خالد بن عبدالعزيز وقد تم صنعه من الذهب حيث بلغ مقدار الذهب المستخدم فيه للبابين حوالي ٢٨٠ كيلو جرام عيار ٩٩,٩٩ بتكلفة إجمالية بلغت ١٣ مليوناً و٤٢٠ ألف ريال عدا كمية الذهب.

هذا، وللمسجد الحرام أبواب كثيرة تغير اسم بعضها على مرّ العصور، وبقيت بعض الأسماء كما هي دون تغيير، ويبلغ عدد أبواب المسجد الحرام ٢٥ باباً في الإجمالي،

منها ثمانية في الشمال وسبعة في الجنوب وخمسة في الشرق وخمسة في الغرب.

ومن المعلوم أن أبواب الحرم المكي خضعت لمجموعة من التغيير والتطوير، وإضافة أبواب جديدة حتى صارت أبواب المسجد الحرام «١١٢» باباً، وصنعت الأبواب من أجود أنواع الخشب، وكسيت بمعدن مصقول ضبط بحليات نحاسية حتى بدت في كثير من الأحيان تحفة فنية رائعة.

وهذه بعض الأبواب المطلة على الشوارع العمومية من الجهات الأربع، وتوجد أبواب رئيسية معروفة في الجهات الأخرى منها: باب الملك عبد العزيز، يقع في الجنوب الشرقي.

أبواب الجهة الغربية

باب الحزورة: والحزورة اسم لسوق في الجاهلية كانت في هذا المكان وأدخلت في مساحة المسجد الحرام وله أسماء أخرى مثل باب البقالية وباب الوداع؛ لأن الناس يخرجون منه عند سفرهم، وعليه نص تأسيس باسم السلطان الناصر فرج بن برقوق مؤرخ بعام ٨٠٤ هـ.

وباب العمرة: ويحمل هذا الاسم لأن المعتمرين من التنعيم يخرجون ويدخلون منه.

باب إبراهيم: نسبة إلى رجل اسمه إبراهيم الخياط كان يزاول عمله عند هذا الباب.

باب مدرسة الشريف غالب.

باب مدرسة الداوودية.

أبواب الجهة الجنوبية

باب بازان: يقع هذا الباب بأقصى الجهة الجنوبية، وسمي بهذا الاسم لقربه من عين ماء بازان.

باب البغلة: وعرف أيضاً بباب بني سفيان، ثم باب الصفا، سمي

بذلك؛ لأنه يلي الصفا، ويعرف أيضاً بـ«باب بني مخزوم»؛ لأنهم كانوا يسكنون في تلك الجهة.

وباب **أجياد الصغير** المعروف أيضاً بـ «باب الخلفيين».

وباب المجاهدية: ويقال له: باب الرحمة، ويسمى الآن باب أجياد؛ لأنه يقع في مواجهة شارع أجياد.

وباب الحميدية: نسبة إلى السلطان عبد الحميد، واسمه القديم باب أم هانئ بنت أبي طالب.

وباب بني تميم: ويعرف أيضاً بباب التكية لمواجهته للتكية المصرية التي كانت مبنيةً أمامه، ويعرف أيضاً باسم باب عجلان أو باب مدرسة الشريف عجلان أو باب بني تميم.

أبواب الجهة الشرقية

باب السلام: ويعرف أيضاً بباب بني شيبة، وهو الباب الذي يدخل منه الحجيج لأداء الطواف، وهذا الباب من تجديد السلطان سليمان خان عام ٩٣١ هـ .

ثم باب قايتباي أو باب النبي؛ حيث كان الرسول ﷺ يخرج ويدخل منه أو من جهته إلى دار زوجته السيدة خديجة رضي الله عنها، وكان في الموضع المعروف بمولد فاطمة الزهراء عليها السلام في زقاق الصوع أو في زقاق العطارين، كما سمي أيضاً بباب الجنائز لخروج الجنازات منه.

ثم باب العباس: وكان يقابل دار العباس بن عبد المطلب، وعليه نص باسم السلطان الأعظم مراد خان بن السلطان سليم عام ٩٨٨ هـ .

ثم باب علي: ويعرف أيضاً بباب بني هاشم، كما عرف أيضاً باسم البطحاء، وعليه نص تجديد باسم السلطان مراد خان عام ٩٨٤ هـ.

ومنها «باب الحريريين»: لأن الحرير كان يباع إلى جواره.

باب مدرسة السلطان قايتباي: وهذا الباب نافذ من المسجد الحرام إلى شارع المسعى.

الكعبة في عصرنا

باختصار نشير إلى التطور الذي جعل المسجد الحرام كما هو عليه الآن، فالمسجد الحرام يتكون حالياً من مساحة مستطيلة ١٩٢×١٣٢ متراً أي بمساحة إجمالية قدرها ٢٥٣٤٤ متراً، ويتوسط هذه المساحة الكعبة المشرفة ويحيط به من الجهات الأربع ظلات بها أروقة مغطاة بقباب ضحلة مقامة على مثلثات كروية محمولة بدورها على عقود وأكتاف من الحجر.

ونتيجة لتزايد أعداد المسلمين الوافدين لأداء فريضة الحج وتجديد مباني الحرم كله ليصبح على الشكل الذي نراه اليوم فقد تمت توسعة ساحة المسجد في عام ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨م وتجديد مباني الحرم الشريف ليصل عدد المصلين والطائفين به الآن لأكثر من مليونين.

ويحيط بالحرم شارع عرضه ثلاثون متراً وهو من مظاهر تعظيم الكعبة المشرفة. وللمسجد الحرام ٢٥ باباً في الإجمالي، منها ثمانية في الشمال وسبعة في الجنوب وخمسة في الشرق وخمسة في الغرب.

سدنة الكعبة ومفتاحها وكسوتها

وختاماً هذه وجيزة بسيطة أراها مناسبة عن موضوع سدانة الكعبة وعما يتعلق بمفتاحها وكسوتها:

فالسدانة لغة من سدن سدناً وسدانة وسداناً: خدم الكعبة. والسادن هو خادم الكعبة والجمع: سدنة. وتأتي بعدة معان في معجم اللغة العربية مثل الأمين والحاجب.. وهو المسؤول عن أمور المسجد الحرام وما يرتبط به رعاية ونظافة وحفظاً..

وسدانة الكعبة ترجع إلى تاريخ

بنائها وتعني القيام بجميع أمورها من فتحها وإغلاقها وتنظيفها وغسلها وكسوتها وإصلاح هذه الكسوة إذا تمزقت واستقبال زوارها وكل ما يتعلق بذلك، فقد كان يقوم بأمر السدانة إسماعيل عليه السلام ثم من بعده ذريته، إلى أن كان عهد قصي بن كلاب فأخذ قصى سدانة الكعبة من خزاعة التي كانت قد استولت على السدانة بالقوة مدة ليست بالطويلة، وهي قبيلة هاجرت من اليمن بعد انفجار سد مأرب واتجهت إلى مكة وأقامت بها.

وقد ولد لقصي عبدالدار وعبد مناف وعبدالعزى وعبد قصي، وبعد وفاة قصي انحصرت السدانة في عبدالدار وأبنائه حتى كان منهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة. وينتهي نسب سدانة الكعبة المشرفة الحاليين إلى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة وقد أسلم عام الفتح على أصحّ الروايات وله صحبة ورواية عن النبي صلى الله عليه وآله.

وجميع آل الشيبي في هذا العصر هم من أبناء الشيخ محمد بن زين العابدين، وينقسمون إلى أبناء الشيخ عبدالقادر بن علي، وهم عائلة عبدالله، وحسن آل الشيبي، وأبناء عبدالرحمن بن عبدالله الشيبي، وهم محل احترام وإكرام كما دلت على ذلك الأخبار الواردة في حقهم، ولا يزالون في موضع الإكرام والرعاية عند عموم المسلمين، ولايزال وجودهم من معجزات رسول الله صلى الله عليه وآله التي أخبر أمته بها وأن المفتاح سيبقى بأيديهم كما يبيّن القول المنسوب إلى جبريل أو إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حينما نزلت الآية الكريمة ٥٨ من سورة النساء:

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمانات إِلى أَهْلِها...﴾.

يقول الخبر كما في أسباب النزول للواحدي ـ: عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار، كان سادن الكعبة، فلما دخل النبي صلى الله عليه وآله مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح، فطلب رسول الله صلى الله عليه وآله المفتاح، فقيل: إنه مع عثمان، فطلب رسول الله صلى الله عليه وآله المفتاح منه فأبى وقال: لو علمت أنه رسول الله لما منعته المفتاح، فلوى علي بن أبي طالب يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله البيت وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السقاية والسدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك علي، فقال له عثمان: يا علي! أكرهت وأذيت ثم جئت ترفق! فقال: لقد أنزل الله تعالى في شأنك، وقرأ عليه هذه الآية فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله وأسلم، فجاء جبريل عليه السلام وقال:

«ما دام هذا البيت فإن المفتاح والسدانة في أولاد عثمان. وهو اليوم في أيديهم».

وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وآله حين أعاد المفتاح لعثمان قال:

«خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله، لا ينزعها منكم إلا ظالم. أو خذوها يابني طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم».

وهنا ندع الكلام لأحد سدنة بيت الله الحرام، وهو نزار الشيبي ليحدّثنا عن شيء من تاريخ السدانة:

آلت إلينا السدانة منذ أيام جدنا قصي، وانتقلت بين أبناء ابنه عبدالدار الذي كان له خمسة أولاد، وكان لا يخرج في رحلة الشتاء والصيف فيعايره إخوانه بسبب ذلك، فسمعهم أبوه قصي فقال:

والله لأشرفنك عليهم، فأعطاه سقاية الكعبة والسدانة والرئاسة والندوة والرفادة ولـواء الحرب، وعندما جاء إخوانه، قالوا لـه: إنك أخذت كل الشـرف، وما تركت لنا شيئاً، فقال: خذوها كلها إلا السـدانة والرئاسة حيث كان هو رئيس قريش.

إن كبير سدنة بيت الله الحرام هو الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الشيبي، وهو الذي يوجد لديه مفتاح الكعبة، ويقال له: (الحجبي) أي الذي يحجب البيت، فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون للكعبة المشرفة سدنة، أي من هم مسـؤولون عنها، وأن يكون لها مفتاح.

ويواصل الشـيبي حديثـه قائلاً: إن الكعبة المشـرفة تفتح مرتين في السنة لغسلها، ويسمح بدخولها حينئذ لبعض كبار ضيـوف الدولة وبعض العلماء والمشايخ، وأيضاً القائمون بغسلها.

ويضيف: تعلّـق في داخل الكعبة الهدايـا الـتي قدمت لهـا، وبعض الموجودات بداخلها ربما تعود إلى ما بعد أن ضربها الحجاج بن يوسـف الثقفـي بالمنجنيق، يعني تقريباً تعود إلى ١٢٠٠ سـنة، لكن هناك بلا شك أشياء تعود إلى عصور لاحقة، وأشياء أخرى حديثة..

وبعـد هذا كان ختـام كلامه عن كسوة الكعبة.

كسوة الكعبة

أثنـاء فريضة الحج وبعد أن يتوجه الحجاج إلى صعيد عرفة، يتوافد أهل مكة إلى المسـجد الحـرام للطواف والصلاة ومتابعة تولي سدنة البيت الحرام تغيير كسـوة الكعبة المشرفة القديمة، واسـتبدالها بالثوب الجديد اسـتعداداً لاسـتقبال الحجـاج في صباح اليوم التالي الذي يوافق عيد الأضحى.

وقبـل هذا الوقـت وفي منتصف

شهر ذي القعدة تقريباً، يتسلم كبير السدنة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الشيبي في حفل سنوي الثوب الجديد من الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي بقاعة المناسبات الرئيسية في مصنع كسوة الكعبة المشرفة بضاحية أم الجود بمكة. وبعد إحضار الثوب الجديد تبدأ عقب صلاة العصر مراسم تغيير الكسوة حيث يقوم المشاركون في عملية استبدال الكسوة عبر سلّم كهربائي بتثبيت قطع الثوب الجديد على واجهات الكعبة الأربع على التوالي فوق الثوب القديم.

وتثبت القطع في عرى معدنية خاصة (٤٧ عروة) مثبتة في سطح الكعبة، ليتم فك حبال الثوب القديم ليقع تحت الثوب الجديد نظراً لكراهية ترك واجهات الكعبة مكشوفة بلا ساتر.

ويتولى الفنيون في مصنع الكسوة عملية تشبيك قطع الثوب جانباً مع الآخر، إضافة إلى تثبيت قطع الحزام فوق الكسوة (١٦ قطعة جميع أطوالها نحو ٢٧ متراً) و٦ قطع تحت الحزام، وقطعة مكتوب عليها عبارات تؤرخ إهداء خادم الحرمين الشريفين لثوب الكعبة وسنة الصنع، ومن ثم تثبت ٤ قطع صمدية ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ﴾ توضع على الأركان، و١١ قطعة على شكل قناديل مكتوب عليها آيات قرآنية توضع بين أضلاع الكعبة الأربعة.

هذا وأن آخر قطعة يتم تركيبها هي ستارة باب الكعبة المشرفة وهي أصعب مراحل عملية تغير الكسوة، وبعد الانتهاء منها تتم عملية رفع ثوب الكعبة المبطن بقطع متينة من القماش الأبيض، وبارتفاع نحو مترين من شاذروان (القاعدة الرخامية للكعبة) والمعروفة بعملية إحرام الكعبة. ويرفع ثوب الكعبة لكي

لا يقوم بعض الحجاج والمعتمرين بقطع الثوب بالأمواس والمقصات الحادة للحصول على قطع صغيرة طلباً للبركة والذكرى.

ويتم تسليم الثوب القديم بجميع متعلقاته للحكومة السعودية التي تتولى عملية تقسيمه كقطع صغيرة وفق اعتبارات معينة لتقديمه كإهداء لكبار الضيوف والمسؤولين وعدد من المؤسسات الدينية والهيئات العالمية والسفارات السعودية في الخارج.

ويستهلك الثوب الواحد للكعبة نحو ٦٧٠ كيلو جراماً من الحرير الطبيعي و١٥٠ كيلو جراماً من سلك الذهب والفضة، ويبلغ مسطحه الإجمالي ٦٥٨ متراً مربعاً، ويتكون من ٤٧ لفة، طول الواحدة ١٤ متراً وبعرض ٩٥ سنتيمتراً. ويكلف الثوب الواحد نحو ١٧ مليون ريال سعودي.

ويعود إنشاء المصنع إلى بداية شهر محرم عام ١٣٥٧ هـ بجوار البيت العتيق ليكون أول مصنع لكسوة الكعبة..

ولمزيد المعلومات حول الكعبة انظر المراجع التالية:

- **مجمع البيان، للشيخ الطبرسي**
- **تفسير الميزان، للسيد الطباطبائي**
- **التفسير الأمثل، للشيخ المكارم**
- **في ظلال القرآن، لسيد قطب**
- **أسباب النزول، للواحدي**
- **تاريخ الرسل والملوك، للطبري.**
- **مرآة الحرمين، إبراهيم رفعت.**
- **بدائع الزهور في وقائع الدهور.**
- **أخبار مكة، للأزرقي**
- **إعلام الأعلام ببناء المسجد الحرام، للقطبي.**
- **شؤون الحرمين الشريفين في العهد العثماني، عبد اللطيف هريدي.**

الهوامش

١. آل‌عمران: ٩٦.
٢. انظر في ظلال القرآن وتفسير الأمثل: الآية.
٣. انظر: تفسير مجمع البيان وإعراب القرآن الكريم.
٤. انظر: أسباب النزول للواحدي : الآية.
٥. إبراهيم: ٣٧.
٦. انظر: أخبار مكة للأزرقي ١: ٣٣ـ ٣٤
٧. المصدر نفسه ١: ٣٥.
٨. الأمثل في التفسير: الآية.
٩. انظر: الدر المصون في علوم القرآن للسمين الحلبي ٣ : ٣١٥، ومجمع البيان للطبرسي: الآية.
١٠. المائدة: ٩٧.
١١. آل عمران: ٩٦.
١٢. آل عمران: ٩٧.
١٣. الحج: ٢٩.
١٤. الحج: ٣٣.
١٥. المائدة: ٢.
١٦. المائدة: ٩٧.
١٧. الطور: ١ـ٤.
١٨. إبراهيم: ٣٧.
١٩. راجع أيضاً: ميقات الحج، العدد ١٤: ١٦٨.
٢٠. أخبار مكة ١: ٢٩١.